اعترافات نسوية سابقة

بقلم/ أم خالد

ترجمة: كوثر الفراوي

تحرير: تسنيم راجح

بيت المقدس



1443 هـ 2022 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

اعترافات نسوية سابقة

بقلم/ أم خالد

ترجمة: كوثر الفراوي

تحرير: تسنيم راجح



بيت المقدس

الفهرس

مقدمة الناشر

نجمع في هذا الكتاب، سلسلة مقالات للكاتبة أم خالد[1] نشرتها في منصة "فيسبوك" تحت عنوان "اعترافات نسوية سابقة". يقدم الكتاب خلاصات نافعة لكل امرأة، ويسلط الضوء على التناقضات التي تروج لها النسويات والحرب التي سلطتها على فطرة النساء حتى أضحت من أبرز الأمراض التي تتسلل لمجتمعات المسلمين بدفع الآلة التغريبية للغزو الفكري والنتيجة هدم للأسرة والمجتمع المسلم وتخلف المسلمة عن أداء واجباتها وسد ثغرها، وهي الهزيمة للأمة التي تستسلم لمثل هذا المرض.

وقامت بيت المقدس بتنسيق السلسلة بشكل كتاب ليسهل حفظها في المكتبة الإسلامية ولتكون بمثابة مرجع وصناعة وعي.

جزى الله كل من الكاتبة والمترجمة والمحررة، حيث تضافرت جهودهن لإخراج هذا الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيت المقدس

[1] أم خالد كاتبة في موقع https://muslimskeptic.com/author/umm-khalid/

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الأول)

كنت فيما مضى متعصبة للطرح النسوي بشدة؛ كنت نسوية، وتحديداً في الفترتين الثانوية وأولى السنوات الجامعية..

إذا فأجاكم الكلام، فلأنكم لا تعرفونني إلا كأم وربة بيت ترعى صغارها الأربع وتكتب على صفحتها الفيسبوكية حول مواضيع التربية والتعليم المنزلي، وإذا كنت ممن تفاجؤوا، فأنا أدعوك للاستعداد والتهيؤ لتتفاجأ أكثر بما هو آت من كلام...

لم أرغب في الزواج، وإنجاب الأطفال إطلاقا..

نعم، كنت "تلك" الفتاة!

فكرة الزواج كانت تشعرني بالضعف والتقييد الذي يحد من تمكيني، كأن السبيل الأوحد لدفع الضعف عني والعيش على نحو هانئ مطمئن غير ممكن إلا بالاقتران برجل، الفكرة نفسها كانت مدعاةً للقلق والاضطراب بالنسبة لي، لذا كان جوابي حينئذ لكل ما يرتبط بمنظومة الزواج هو: لا، شكرا.

فكرة الإنجاب كانت تجعلني أكاد أتميز من الغيظ، كنت أتخيل الأطفال يتذمرون طوال الوقت وحيال كل شيء، يتعلقون بي كوزن ميت لا حياة فيه، يلتفون حول عنقي ويطوقونه حد الاختناق، كنت فكر في الرَّضع الذين يبكون ويصرخون من أجل تغيير حفاظاتهم أو يستيقظون في وسط الليل حيث هدأة الأنفاس، الجفون مغمضة والكل يغط في نومه العميق، إلا تلك الأنثى المسكينة التي قدِّر عليها أن تكون أماً، كنت أفكر في كل الصغار الذين أخذوا على أنفسهم ألا يتفرغوا لشيء إلا جعل لحظات اليوم تمر في شكل نوبات

من الارتجاف اشمئزازاً من إفرازات أنوفهم اللزجة، والأدهى من هذا كله أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد، فهذه الإفرازات ستصبح مهمتي مدى "الحياة!".

كان الأمر لا يختلف في نظري عن من حكم عليه بالإعدام مدى الحياة، الإعدام على مهل حتى انتهاء العمر، كيف أرضى أن تغدو هذه التفاصيل الرتيبة هي ما يملأ جدولي اليومي في قابل الأيام؟ هذه هي حريتي، هويتي، بل ما يمنح وجودي المعنى!

لا، شكراً.

إذاً لا زواج، لا أطفال. أنا راضيةٌ كما أنا.. لوحدي.

على هذه الشاكلة كنت أفكر، أو قل هكذا كانت عقليتي ومنطلقاتي مع نهاية مرحلة "المراهقة" واقترابي من أفق العشرينات، لم أفهم شيئا، لكنني ظننتني أفهم كل شيء..

أخوات كثيرات يمددن أيديهن إلي يدي الآن ويضممن أصواتهن إلى صوتي ذاك، أسمعهن يقلن: نحن أيضا على الذي تصفين! إنهن نساء نظرن إلى الزواج من زاوية ضيقة -مثلي- على أنه شراك العبودية، أما الأطفال فهم حبائل الوقوع في هذا الفخ..

هذا ما تشربناه نحن النساء حد الإشباع مع توالي الأيام، ونحن نكبر في هذا العالم الأناني الذي أُخفِضت فيه كل الأصوات عدا صوت: "الأنا"..

نعم تخطينا كل الحدود الاعتيادية للتلقين الليبرالي: المؤسسات الحكومية، البرامج الهوليودية، غسيل الدماغ الممنهج عن طريق الميديا، الموسيقى، المجلات والكتب والجامعات ..

الحداثة، الفردانية، المتعة، الرأسمالية، الاستهلاكية، واخيرا النسوية، كلها تعاضدت وتكاثفت لتعلمنا كيف نحتقر كل ما أو من يتجرأ على انتزاع حريتنا من بين أيدينا، وبالتالي فالرجل والأبناء هم مرحلة مشكوك ببلوغها، أو قل هم مستبعدون من مخططات "الحرية".

فكان الدرس إذاً: إنسَي الزواج، من يحتاج الرجال على كل حال؟ إنسَي الانجاب وأوهام الحصول على الأبناء، من يحتاج صداع الرأس ذاك؟

كل ما عليكِ فعله هو السعي للتقدم في مسيرتك الدراسية والمهنية التي اخترتِ وشققتِ طريقها بنفسكِ، ركزي على أهدافكِ العالية، وابذلي واسع الجهد لبلوغها، اجمعي الشهادات، هذا الماستر، وتلك الدكتوراة، فأنتِ تستطيعين! قومي بالابحاث المخبرية، اصعدي سلم الوظائف في الشركات الكبرى، لا تقبلي إلا بالحصول على المراتب العالية، والمناصب التي تملأها نفحات التمكين، الحياة جميلة فقط إذا زينتها بعرش الاستقلالية، جميلة فقط حين تكونين فيها: المرأة المستقلة.

والحال أننا كنا ننزلق الهوينا، خلسة..

نحن عشنا بحياتنا إذ باعوا لنا الأوهام وزخرف الكلام، فاتبعناه على غير هدى، عشنا في الأوهام والمبادئ الزائفة عدد سنين، حتى وجدنا أنفسنا في أواخر العشرين أو الثلاثين من العمر... هناك حيث تلقينا أولى الضربات الموجعة من حيث لم نحتسب: صفعة الرغبة العجيبة بالأمومة..

على غير المتوقع، تتحرك مكامن الشعور في دواخلنا بأحاسيس غير مفهومة، ورغبة ملحة بحمل رضيع بين أحضاننا الفارغة، في لحظة واحدة، نسرح بخيالنا إلى ذاك البيت الدافئ العامر بضحكات الصغار وأرجلهم الصغيرة تحدث الصخب على أرضياته وبين جدرانه وهم يلعبون ويمرحون ويملؤون الأرجاء بالبهجة، كله ونحن نتبسّم لخيال الفكرة وجمال القدر الذي جمعنا، ولا أبلغ من وصف امرأة في الثلاثينات من العمر، إذا رأت إحداهن وهي تدفع صغيرها في عربته لشعورٍ بالرغبة لإمساك رحمها الفارغ الذي يطلب الامتلاء.. غريزة الأمومة تلك لا تموت فينا مهما فعلنا ..

قد تنام وقد تُخَدّر، لكنها تُثار فجأة وتفيق من سباتٍ نظنه موتاً لا حياة بعده..

إنه شعور فظيع بالألم يمزقنا، ألم هذا التنافر الفكري المزمن بين ما نريده بشدة وبين ما نفعله حين نجد أنفسنا في الوسط، أو بالأدق في حالة من التعارض والتناقض بين ما نعتقده ونريده، وبين ما تصدقه أفعالنا على أرض الواقع..

هذه الرغبة الوليدة العجيبة في الحصول على زوج، على عائلة وأبناء لا تتوافق البتة مع ما تصرخ به أفكارنا التي آمنا به فترة غير يسيرة من الزمن، والتي تقضي بأن الزوج والأبناء ليسوا إلا أعداء مجندين لقص أجنحة حريتنا، إننا نجد أنفسنا مطمئنين فكرياً إلى جواز كل سلوك مبني على رفض الزواج والأطفال بالكلية، غير أننا وعلى النقيض تماماً نجد أنفسنا عاطفياً مجبولات على الميل والرغبة في الأشياء والتفاصيل ذاتها التي طالما رفضناها!

هذا الصراع وحده كفيل بإيصالنا للجنون!

أفكار متنافرةٌ كقطبي مغناطيس تأكلنا وهي تذهب وتجيء بعقولنا وقلوبنا:

"كم أنا ساذجة! كيف كرهت الزواج والابناء طوال هذا الوقت؟ إنهم كل ما أريده اللحظة"!

"لا، بل أنا غبية الآن بسبب هذه الرغبة الدخيلة التي نمَت بداخلي في الحصول على طفل! ولذا لن أألُ جهدي في التخلص منها، ساكون حمقاء إذا فكرت يوما أن أصبح أماً أو امرأة عادية؟؟ ما الذي سأفعله مع هؤلاء الصغار أصلاً؟"

"إنه لَعَين العبث أن أضيع رحلتي الجامعية من أجل حجز مقعدٍ في مؤسسة الزواج المملة! أي عارٍ وخزي ذاك الذي في هدر كل ما حققته وتعبت لبلوغه على مدار سنوات من أجل الزواج؟ أبداً! لن أرمي كل هذا ورائي!"

"ماذا عن طموحاتي، آمالي، وأحلامي، ماذا عن هويتي وبصمتي كفرد؟ كلها ستتلاشى عندما أصير أما أو امرأة عادية! هل هذا كل ما يوجد في الحياة؟ أمرٌ موسف!"

"لقد فعلت الكثير، رأيت الكثير، سافرت وعشت مغامرات لا تُنسى، والآن سيكون "الاستقرار" والقرار في بيت عائلي يحيطني فيه صغاري ويحاصرونني على نحو مضجر، سيكون ذلك مملاً ورتيباً حد القهر! نفسيتي تغيرت لدرجة أنني لا أستطيع المكوث بين أربعة جدران برفقة الأبناء، لا أدري حقا كيف سأتمكن من تحمل أثقال هذا التغيير الحاد في الحياة!؟"

"هل في الإسلام ما يلزمنا بالزواج والإنجاب أساساً؟ فكيف تحكم مسيرتي وما اخترته لنفسي على مدى طاعتي وحبي لربي؟"

"عندي تعلّقٌ كبير بأبحاثي، التفكير في التخلي عنها واستبدالها بشيء آخر أمر شاق لا أستطيع تحمله!"

"حتى صديقاتي المتزوجات غير راضيات، إنهن يتذمرن من حياتهن حد التسخط أحياناً! يبدو أن الأمهات في المنزل يشعرن على الدوام بالقمع وبقلة التقدير، وكذلك الأمهات العاملات خارج البيت يشعرن بالضغط الشديد في التوفيق بين مسؤوليات العمل والبيت، لا احد على الإطلاق يحب أن يكون أما!! فلماذا أفعل أنا؟؟"

"تعبت حقا من هذه الدكتوراة الغبية والبائسة! لا رغبة لي حتى في إتمامها، ما الفائدة التي سأجنيها من وراء تحصيلها على كل حال؟ أنا أريد طفلاً الآن! بل على الفور!"

"لكن.. ماذا لو قمت بهذه القفزة الهائلة من حياتي المهنية إلى حياة عائلية دافئة ومؤنسة، ثم ندمت وتآكلت حسرة؟؟ وماذا لو تركت مهنتي حتى يتسنى لي التفرغ لبيتي والقيام على شؤون صغاري ورعايتهم، ثم وجدتني وقد كرهت الوضع الجديد بشكل مفاجئ! ما الحل حينها؟ ترى هل سيكون ثمة سبيل للتراجع؟؟"

مــع هــذه الأفكــار الحمقــاء، والصــراعات الداخليــة العصــيبة والمضــنية الــتي تثيرهــا بــداخلنا، ستشــعر كــل أنثــى أنهــا محطمــة، تائهــة، وحزينــة، ســيخيم الظــلام علــى كــل أركــان الحيــاة وتفاصــيلها، ســتغدو باردة، ومنزوعــة البهجــة، أفكارهــا كلهــا متشــابكة ومضــطربة، إنهــا فوضــى عارمة لا تعرف السبيل لترتيبها..

شــغفنا وطموحاتنــا تقــول شــيئاً، وقلبنــا يهمــس لنــا بشــيء آخــر، ونحــن بــين هــذا وذاك لا نفقــه ايهما الصواب والأصح..

هــذه كانــت هديــة الحداثــة لنــا نحــن النســاء، سمٌّ تســلل إلى جــذور أفكــارنا حــتى بلــغ مــداه، ثم عكــف يبــدل فيهــا ويغــير شــيئا فشــيئا علــى جرعــات متفرقــة، كمــا تصــبغ الألــوان بيــاض الثــوب، فطرتنــا وجبلّتنــا نحــن النســاء تصــطدم مــع مــا تمليــه القــيم المجتمعيــة بمعــايير العصــر في العــالم الحــديث أجمــع، وفي المحصــلة تــدخلنا هــذه الإشــارات الداخليــة والخارجيــة في صــراع نازف دائم..

ولحــل أي مشــكلة يتعــين علينــا مبــدئيا تشخيصــها والإلمــام بمســبباتها، إذ لا نســتطيع حــل مــا لا نرضى الاعتراف بوجوده أصلاً!

ولــذلك نحتــاج لإعــادة النظــر في العــالم الحــداثي النســوي لســبره ومعرفتــه علــى وجــه الحقيقــة فيــه مــن غــير زيــف، لنعــرف كيــف تســلل بهــذا الخبــث إلى نفســيتاتنا حــتى زعــزع أمنهــا واســتقرارها، ثم إن البحــث علــى الحقيقــة هــي مســؤوليتنا؛ البحــث بــنَفَس منفتحــة وقلــب منشــرح لتحصــيل الانســجام، وتحقيــق الطمأنينــة، راحــة البــال الحقيقيــة، ذاك هــو الســبيل لرفــع رايــة الســلام، وإنهــاء هذه الحرب الداخلية الطاحنة إن شاء الله ..

ذاك رجاؤنا، والله الموفق المعين..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الثاني): النساء، الثقافة والإسلام.

النساء في الثقافة المصرية:

كبرت واحدة بين خمس إخوة وأخوات: أربعة فتيات وواحد ذكر، في مصر وجدت أن الناس يجدون الحظوة لمن رزقه الله إبناً، حتى إن الواحد منهم يتلهف لينجب ولو ابناً واحداً ذكراً على الأقل، أما الفتيات..فدعك من سيرتهن!

علاوة على ذلك، سمعت لهم أقوالاً كثيرة في المسلسلات والأفلام تحط من قدر المرأة، أو تقحمها في أقوال مسخّفةٍ لدورها من قبيل"ده كلام نسوان" و"ده شغل نسوان"...في إشارة إلى نزع الجدية والمصداقية عنها، على خلاف الحوارات التي تتخللها تعابير تشيد بالرجل وتمنح كل ما يقوم به منزلة رفيعة وموثوقة مثل: "كلام رجالة"، أي أنه جاد وجازم ومفيد..

في المرحلة الثانوية على وجه التحديد، كنت قد بدأت ألاحظ وأدقق في هذا النوع من الخطابات داخل المجتمع الذي أنحدر منه..

النساء في الثقافة الأمريكية:

ما سأقوله ليس مأخوذاً من التلفاز أو الأفلام الأمريكية إطلاقا! فقد كنت أساساً جزءاً من المشهد الأمريكي ودرست هنا في مدرسة حكومية، ومع الوقت وأنا أكبر كنت قد اقتنعت تماما بحقيقة مفادها: أن تكوني أنثى ليس بالأمر الكافي، فكل ما في الذكور أجمل وأفضل، وعلى جميع الأصعدة حتى: فهم يمتلكون جثة ضخمة تضفي عليهم هيبة خاصة، فضلا عن قوتهم البدنية غير العادية، أما على الصعيد العاطفي فهم أكثر استقراراً، وأفكارهم أكثر حزما وصرامة..

المجتمع الأمريكي لم يتوقف لوهلة واحدة عن الهمس لي بأن الفتاة لا تعدو أن تكون مادة جنسية لتحقيق شهوة الرجال ومتعتهم، وبالتأكيد فهي أيضاً ذلك الكائن المسكين الاعتمادي الغبي والبسيط! هذه هي الرسالة التي وصلتني من خلال أغلفة المجلات، كلمات الأغاني، والأحاديث اليومية في المواصلات.. لقد راعني هذا التصوير المنتشر في كل أنحاء العالم غير الإسلامي.

النساء والتشريعات الإسلامية:

أنا أيضا مثل الكثيرات أصابتني سهام التصورات والأفكار المشوهة والمسمومة المنتشرة التي تؤصل لقاعده مفادها أن الإسلام لا يكترث بالمرأة، بل ينبذها ويهمشها..

لم أُجبر على ارتداء الحجاب، غير أنني وجدت صعوبة وعسراً في فهم الغرض منه، جزءٌ مني اقتنع أن الحجاب ما هو إلا وسيلة لحجب جمالي وجعلي أكثر بشاعة، أو على أقل تقدير سرقة أنوثتي..

أحياناً كنت أذهب أحياناً إلى الجانب الفكري الآخر القصي عن هذا التصور؛ كنت أقول لربما وعلى العكس هو علامة أنوثتي، مادامت النساء هن المطالبات فقط بوضعه على وجه التحديد، في الواقع لم تكن عندي فكرة واضحة المعالم عما تعنيه الأنوثة اساساً، لم أعلم إن كانت أمرا جميلا أم قبيحا؟؟

أفكار مشوشة، وعلامات استفهام كثيرة تربو بداخلي شيئاً فشيئاً، لماذا تميز التشريعات الاسلامية بين الرجال والنساء على هذا الشكل؟

بالنسبة لي لم يكن الأمر محايداً، وانما كان مشبعاً بترجيح كفة أحد الجنسين على الآخر، فالذكور كانت لهم تشريعات خاصة تذكيهم وترفعهم، على خلال الإناث اللواتي تُركن للحيرة والفُتات!

وهكـذا، بنيـتُ تصـوري حـول وضـع المـرأة في الإسـلام علـى مجموعـة فرضـيات، اسـتقيتها مـن بعـض الأحكـام الخاصـة بالنسـاء مثـل الحجـاب، إمامـة الرجـال لهـن والـزامهن بالوقـوف وراءهـم، طبيعـة الاخـتلاط بينهمـا وضـوابطه الـتي كانـت في نظـري تؤكـد مـا افترضـته وتوصـلت إليـه، أن الإسـلام يعطـي المـرأة مكانـة أدنى مـن شـقيقها الرجـل، وبـدا لي الأمـر حينهـا تعبـيراً صـريحاً لا يختلـف عـن الـذي تلقيتـه بصـوت عـال وفصـيح مـن قِبـل الثقـافتين المصـرية والأمريكيـة، والـذي يقول: الرجال جيدون، والنساء سيئات!

معظـم اليـافعين يملكـون فهمـاً ضـيقاً وحـدياً عـن العدالـة، وبالنسـبة لي هـذه الفـوارق الـتي اتخـذت مـن الاخـتلاف في الجـنس منطلقـا لهـا لم تكـن تتناسـب البتـة مـع مـا تعلمتـه في الثانويـة الأمريكيـة عـن العدالـة، فالعدالـة والمسـاواة همـا مفهومـان يسـاوي أحـدهما الآخـر: (المسـاواة=العدل)! ألـيس كـذلك؟ فهـل مـن العدالـة في شـيئ عـدم مسـاواة الاسـلام بـين الـذكر والأنثى؟ أين هو العدل؟ لم أعد أفهم..

أبي، ذاك الرجـل الطيـب الصـبور، تحمّـل كثـيراً مـن الخطـابات الحانقـة الـتي صـدرت عـني في تلـك اليافعـة المتعضـة في سـن الخامسـة عشـرة، ومـع أن أسـئلتي كانـت كثـيرة ومكـررة علـى نحـو مـزعج، إلا أنـه لم يسـخِّفها قـط، إنمـا تعامـل معهـا بمنتهـى اللطـف والأناة ولم يتركـني لحبائـل التساؤلات تخنقني..

أسـئلة سـريعة ومشـحونة بالاتهـام علـى شـاكلة: لمـاذا علـى النسـاء ارتـداء الحجـاب دونـاً عـن الرجـال؟ لم يكـن الإنزعـاج مـن وضـعه هـو مثـار سـؤالي بقـدر مـا كنـت اريـد أن أراه يغطـي رؤوس الذكور وهم يذهبون به أيضا إلى المدارس في هيئة غريبة!

لمـاذا نصـيب النسـاء مـن الإرث يعـدل فقـط نصـف حصـة الرجـال؟ ألـيس في هـذا إشـارة إلى ازدراء الأنثى وجعلها أقل قدرا من الذكر؟ !

لماذا شهادة رجل واحد تعدل شهادة امرأتين؟ لماذا تعدل شهادة الواحدة منهن نصف شهادته؟ ألأنهن مغفلات وناقصات عقل مثلاً؟ لماذا فضل الله الرجال وقدمهم على النساء في كل شيء؟ واي معنى قد يحتمل كل ذلك؟!

كان والدي يحاول بكل حلم وصبر تخفيف مابي من خلال تفكيك هذه العقد المضطربة التي جئته بها، والتي ارتبطت في داخلي بعقلية: إما /أو، أبيض أو أسود، لا خيار ثالث يلوح في الأفق..

لكنني مع كل جهوده الحثيثة كنت أعاند ثم أعود به لنقطة الصفر من جديد، كنت أظل على حالي وأعكف على تفسير كل كلامه على النحو الذي يريحني! هل كنت أتوقف عن المكابرة والمعاندة؟ إطلاقاً..

بل كنت أقف في وجهه اليوم التالي، واكرر وأعيد على مسامعه ذات الأسئلة، ومع ذلك لم يمل ولم يعرض عن إجابتي قط..

هذا الخلط المزمن بين مفهومي"المساواة" و"العدالة" عند الأنثى، يافعة كانت أو شابة، كفيل بحملها على ركوب قاطرة النسوية، واتخاذ شعاراتها للمطالبة بالمساواة وتحقيق العدالة بين الجنسين قضية تفنى في سبيلها الاعمار!

هذا المزج كان هو الوتر الذي عزفت عليه النسوية مقطوعتها داخلي..

(وللحديث تتمة)..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الثالث): التعليم.

معظم الناس يخلطون بين مفهومين أساسيين هما: "التعليم" و"المعرفة"، والأصل أن العلاقة التي تجمع بينهما أقرب إلى التباين منها إلى التساوي.

نظام التعليم الشامل بأمريكا ليس محايداً أبداً، إنما هو في عكس الحياد حقيقةً..

فهو نظام مصمم على نحو مدروس ومتعمد يرمي إلى تحويل كل طفل بريء يرتاده إلى عامل مصنع لا يختلف دوره عن الآلة، ومواطناً باراً لا يبخل بتقديم الولاء والطاعة لدولته وخدمتها..

المدارس في الحقيقة هي مجردمعسكرات تلقين مجيدة تلعب دور الحاضنة للأطفال من سن الثالثة أو الرابعة إلى قريب من الثامنة عشرة، ثم بعد ذلك تتركهم لكليات الفنون والعلوم الحرة، لتشد على أيديهم من جديد وتاخذهم في رحلة مكثفة من إفراغ وغسل الدماغ، ومن ثم إعادة قولبته وصب الغثاء فيه بالقدر الذي يكفي وزيادة..

وشيئا فشيئا تطفو على السطح وتبرز بعض ملامح النسوية المتحررة في نفس الطالبات إما صراحة أو تعريضا، إلا ما رحم ربي..

واذا ما استصعبتم إستساغة هذا الكلام، فأنا أدعوكم إلى قراءة كتاب

(The Underground History of American education)،

لكاتبه:

John Gatto

.

مؤسس هذا النظام التعليمي الأمريكي الحداثي هوراس مان، اهتدى إليه، أو بالأدق أخذه بحذافيره عن النظام الدراسي البروسي، بعد أن سافر مدة من الزمن إلى هناك وأعجب بالنهج الذي تسلكه روسيا في إدارة المداس؛ حيث جعلت من الاحترام التام والطاعة والولاء إلى الدولة ركائز وقواعد أساسية تُدرس داخل أروقتها، على نحو لا يختلف في دقته عن دوران عقارب الساعة ذات الحتمية والانضباط، أما تعميم هذا النظام فجاء عقِب تجرع الروس مرارة الذل والهزيمة إبان الحروب النابوليونية، لضمان عدم خروج أي جندي فيما بعد عن طاعة الدولة أو مخالفة الأوامر.

أنا كنت الفتاة المسلمة التي ترددت على كثير من المدارس الحكومية الأمريكية من التاسعة إلى سن الثامنة عشرة من العمر، ثم بعد ذلك مضيتُ ألتمس ارتياد القاعات المقدسة لـ «هارفارد»، أحد أهم أكثر جامعات الفنون الحرة "انفتاحاً"..

ترى هل سيكون تأثري وتشربي للأفكار النسوية الخبيثة بعد ذلك أمراً مستغربا؟؟ بل على العكس، إن عدم حصوله هو الذي ينبغي أن يسبب التساؤل والتفاجؤ!

في الصف الرابع في المدرسة العامة تعلمت عن خرافة "بابا نويل"، في الصف الخامس تحدثنا كثيراً عن الحرب الأمريكية الثورية وأبطالها: "جورج واشنطن"، "توماس جفرسون"... وباقي أفراد العصابة، أما في الصف السادس فقد شقوا آذاننا بالحديث عن الرحلات الاستكشافية، وأبطالها الشجعان، ثم عكفوا على تعليمنا أبجديات عيد الشكر الأمريكي، والترنيمة الروحية (Kumbaya) وبداياتهما، ولا أنسى الصف السابع، حين أعددت تقريراً كامل الأركان عن سيدة كنت قد أُعجبت بشخصيتها وسيرتها ومسيرتها الحافلة بالنضال؛ قدموها لنا في صورة المرأة الشجاعة المثالية، والتي لم تألُ جهدها في الدفاع عن حقوق المرأة، ومحاولاتها الدؤوبة لسحب ذيول الظلم والاحتقار عن النساء قاطبة، كانت تلك السيدة التي أخذت بمجامع عقلي وتلافيفه هي!"Susan.B.Anthony" :

لم يحتج تنفيذ هذه الأكاذيب الصارخة، والتحقق بها على أرض الواقع من طرفي لأكثر من 10 سنوات أو أقل، المدرسة الحكومية دأبت بجهود حثيثة على محو وتبييض صحائف كل من رأت في سيَرهم وتاريخهم ما يخدم المصالح الأيديولوجية للدولة، فالآباء المؤسسون مثلاً لم يكونوا على وجه الحقيقة أكثر من عصابة إجرامية متعصبة تدعو للعنصرية بكافة أشكالها! وأما ثلة المستكشفين البريطانيين، فهم لم يتمكنوا من إرساء سفنهم على الأراضي الأمريكية واتخاذها موطنا لهم إلا بعد قيامهم بمجزرة ذبح شنيعة أبادوا فيها السكان الأصليين !

وماذا عن قصة "درب الدموع"؟ هل حقا ما حصل من تهجير للمواطنين الأصليين مجرد كذبة لتشويه التاريخ السَّمح لأمريكا؟! ثم ماذا عن Susan ونضالاتها هي وصديقاتها؟ أم أنهن كنّ يناضلن فقط لأجل بقاء العرق الأبيض واستمراره؟ كنّ كارهات للسود وللرجال بشكل عام، للإله بشكل خاص، لقد كنّ أولى النسويات الملحدات، متعصبات مليئات بالكره والحنق، ولا يفوتني القول أنهن كنّ كذلك يتمتعن بكامل الحقوق ولا يخدمن إلا ذواتهن..

هذا بالضبط هو الفرق بين مفهومي "التعليم" و"المعرفة"، فالمدارس لها برنامجها الخاص وهي تعمل على تعليم روادها لجعلهم تروسا في عجلة هدم الفضائل، يخدمون عن طيب خاطر مصالح الليبرالية، المادية، الإلحاد، العلموية والنسوية... نعم هكذا تعاد قولبة وتشكيل تصورات وأفهام الصغار، ليكونوا جنود الغد المخلصين!

اكتساب المعارف لا يقتضي بالضرورة الخضوع واللجوء إلى هذا النظام التعليمي المنهِك. الرياضيات، العلوم، القراءة، الكتابة، الفن وغيرها.. كلها معارف تستطيع أخذها دون أن تصيبك لوْثات هذه الأنظمة المتحررة الآسنة..

القياس الذي أعتمده للتمثيل هاهنا هو سكب الطلاء في الدلو، فالذي علينا التعامل معه بوعي هو أن المدارس الحكومية الغربية مطالبة بتعليم الأطفال مواد أكاديمية بحتة: كالقراءة،

الكتابة، والحساب.. على نحو يشبه من حيث المبدأ صب كم هائل من الطلاء في دلو صغيرة..

فالدلاء الصغيرة هي أذهان أبنائنا الصغار، لكن الطلاء ذاك لم يعد نقياً، إنما امتلأ بنجاسات الإلحاد، الليبرالية، العلموية، وبالتأكيد النسوية، ضلالات بعضها من بعض، تم تضمينها ودمجها بخبث مع المواد الأكاديمية، بحيث يغدو استئصالها أو فصل أحدهما عن الآخر أمرا عسيرا، إلى شبه مستحيل..

التعلم، النضج، الحكمة، معرفة النفس، العلم، الفهم، والفقه: كلها مفاهيم مهمة لأقصى حد، فهي تتضافر وتتآزر جميعها لتشكيل وبناء النسخة البشرية السوية ما أمكن، وهي نفسها غير متوفرة في النموذج التعليمي البروسي-الامريكي السائد..

التعليم يختلف كليا عن التربية أو العلم، وهذا الفهم المحدود هو بعينه الذي تقع فيه بعض الاخوات المتأثرات بالخطابات النسوية، تقول: "الإسلام يحث ويدعو إلى التعلم، فأول كلمة نزلت من الوحي الشريف هي {اقرأ}، ولذا فحصولي على الدكتوراة في الإدارة المالية عبادة خالصة"..

المسلمون كانوا دائماً على وعي بضرورة تمحيص ما يتلقونه ويُعرض عليهم، لا يكفي الاهتمام بالمعلومة، لكن من يقولها، ما خلفيته وكيف تؤثر منطلقاته بشكل أو بآخر في نفس المتلقي، وهذا بالضبط ما يحصل للتلميذ مع المدرس داخل الفصل؛ إذ يعمد إلى مراقبة جل تحركاته، تعابير وجهه، ما يتلفظ به، وكل ما يتعلق بطريقة تعامله عموماً، وهو ما يمكن أن نختصره في "التعلم بالقدوة"، لذلك كان أخذ الدين من مصادره الموثوقة، والتثبت من المعلومة وحاملها أمرا جوهريا حثنا عليه الإسلام.

(وهو ما دفعني على وجه الحقيقة إلى تدريس أبنائي منزلياً، وإن لم أُرزق بالبنات. غير أنني لو رُزقت بأنثى فحتماً ساحرص على تعليمها منزلياً لإنقاذها من لوْثات النسوية السامة).

كـان هـذا ببسـاطة واقـع نظـام التعلـيم الشـامل، القـائم علـى مـزج كـل مـا هـو أكـاديمي بالغيبيـات والتوجهــات الفكريــة الســائدة المطلوبــة حــتى يــتلاءم الــذهن النــاتج مــع دعــاوى النســوية، الفردانية، واللاأدرية ...

في المنشــور القــادم إن شــاء الله، ســنحاول كشــف الغطــاء عــن الجانــب الاجتمــاعي لنظــام التعليم، وأثره على الفتيات اللاتي شققن طريقهن صوب النسوية..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الرابع): الأنوثة والجانب الاجتماعي للمدرسة الحكومية

مسلمة أنا، تلقيت تعليمي في ثانوية أمريكية.

هناك حيث كان شغل الطلبة الشاغل الحرص على الظهور في هيئة أنيقة؛ ملابسهم، أحذيتهم، حليهم..

وهو ما ينطبق حقيقة على الإناث كما الذكور، إلا أن الأمر عند الفتيات كان يسير مع كثير من المغالاة، وهو ماكان يظهر في لهفتهن وتطلعهن الدائم لاتباع آخر صيحات عالم الموضة، العناية المفرطة بتسريحات الشعر التي قد يصل الأمر معها أحيانا إلى زيادة أو تركيب بعض الخصلات، وهلم جراً..

بالنسبة لي كان من غير الممكن أن يسير النموذج الأنثوي المحتشم والحييّ في قالبه الإسلامي جنباً إلى جنبٍ مع النموذج الأنثوي العلماني والمتحرر! محاولة الجمع بينهما ماهي إلا ضرب من العبث والمحال..

في الثانوية كل الفتيات كنّ جميلات واجتماعيات، مهتمات ومتعلقات كثيراً باقرانهن الذكور، تفاصيل حياتهن تدور كلها في فلك الارتباط بصديق، ومع ذلك كنت أراهن يعشن في خوف شبه مستمر، بل على حافة الانهيار حقيقةً، فكلما لاح شبح الانفصال في الأفق تتفطر قلوبهن ألماً، ويغرقن في بحر الدموع المقهورة، الشيء الذي كان يكشف بوضوح القصور لديهنّ على ضبط النفس واحترامها..

وهو بالضبط ما حصل مع "روكسان" حين أفصح لها "جيمس" بطل فريق المصارعة في الثانوية بعد قصة حافلة من العشق الزائف عن رغبته في الانفصال عنها! أذكر يومها أنني

كنت أهمّ بأخذ كتبي من الخزانة استعداداً لحصة دراسية، حين سمعتها وهي تبث شكواها لصديقتها، وتقول بحرقة وأسى ان حياتها تحطمت وتُركت للدمار بعد أن تخلى عنها جيمس!

امتلأت غيظا لحظتها ولم استطع إخفاء امتعاضي، فهمست لنفسي أن: "اعتبري..إياك وهذه العاقبة المخزية الذليلة، فكما يقولون الدخول في هذه العلاقات المرهقة يودي بالفتيات إلى الحمق أو الجنون، إياكِ أن تكوني على شاكلتهن "!

وددت يومها لو صرخت في وجهها وقلت: " استجمعي قواك وكفاك حمقاً، منذ متى كنت بهذا الضعف؟ ومن أخبرك اساساً أنك بحاجة لجيمس هذا؟ غبية! كفي عن التفكير المفرط في الذكور وملاحقتهم"

مواقف كثيرة اجتمعت وتراكمت في داخلي، ثم دفعتني للتساؤل عما إذا كان سلوك روكسان سليماً؟ يعبر فعلاً عن الانوثة؟ ويتكلم بلسان حال كل فتاة؟؟

ثم فكرت.. لحظة !

إذا كانت هذه هي الانوثة فأنا اتنازل عن رغبتي بها، إذا كانت عقلية الذكر ستجعلني قادرة على احترام نفسي والعيش بكرامة، فأنا قطعاً أفضل أن أكون فتاة بعقلية ذكر على أن أحيا على شاكلة من يبدون فاقدات لأي عقلٍ أصلاً!

فكل ما فيهن كان مصطنعاً؛ اظافرهن، شعرهن، وجوههن المغطاة على الدوام بمساحيق التجميل..

أحياناً كنت افكر كيف تستطيع الواحدة منهن تحمّل كل هذا؟ أي معنى ذاك في ارتداء تنورة قصيرة في عز البرد القارس في نيوجيرسي! بل بأيّ منطق كانت تفكر وهي تلبس

الكعب العالي؟ واي زينة تلك في استبدال مظهر رموش العين الأصلية بأخرى مصطنعة؟ ما الذي كان يجبرهن على القيام بكل هذه الأشياء الخرقاء؟؟

في الحقيقة إنهن فتيات وضعن قيمتهن كلها في نظرات الناس إليهن فأسلمن أنفسهن لهم، واتخذن من رأيهم دافعا لكل ما سبق..

ولأقلها صراحة: هذا الصنف من الفتيات هن ساذجات بقدر جمالهن وحسنهن المصطنع تماماً..

هذه كانت هي الزاوية التي نظرت من خلالها إلى الأنوثة حينها بروح أنثى يافعة، ثم خلصت إلى القرار: إذا كانت الأنوثة هي رديفة للضعف واللامنطق، فأنا أجدد رفضي لها واقول: "لا، شكراً"!

كفتاة مسلمة شعرت بمقت شديد لهذا النموذج الأنثوي المخزي والمنحل، فكرت أن هيأتي، طريقة لباسي، حجابي.. وإن خالفت القول السائد بأن الأنوثة والاحتشام لا يتماشيان معاً، إلا أنها تبقى أفضل بكثير من مجاراة واتباع تلك الحماقات، فقد كنت اعرف حق المعرفة ما ترتديه النساء في مصر من الحجاب، الخمار، والعباءات الفضفاضة.. إلا أن الإتيان بهكذا نموذج، والتحقق به داخل مجتمع أمريكي الأصل فيه هو العري والانحلال، شكل حاجزاً أمامي، فهكذا سيكون لباسي حتماً محط سخرية واستغراب من الكل!!

في الثانوية، ووسط هذا الفراغ والتضارب، اكتمل تصوري السطحي والاجوف لما يمكن أن ترمز إليه الأنوثة من الضعف والسذاجة وكل تلك الحماقات! وهو مالم اقبله على نفسي..

فرُحتُ أفكر في الذي عليّ أن أكونه بالضبط؟ اين هويتي كمسلمة في ريعان شبابها تحاول أن تكون صورة عمليةً للحياء دون أن تبدو ضعيفة وجلة؟ كيف اجمع بينهما معاً؟ أي السبل أقتفي لبلوغ غايتي؟ وعلى ذكر الغاية.. ما الذي أريد بلوغه تحديدا؟؟

فأتاني الجواب: مرحبا بكِ بيننا..النسوية هي الحل لأدوائك كلها!

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الخامس): نقطة التحول.

لا أذكر جيداً اول مرة سمعت فيها كلمة "نسوية"، ولا بداية تعرفي على صفات المرأة النسوية، فهي مفاهيم منسوجة في المجتمع المحيط بي كله، أراها متمثلة أينما ذهبت أو وليت وجهي، إنها امتداد لشجرة الانحلال الليبرالية العلمانية، والمرتبطة على نحو خبيث بالفردانية "والاستقلال"..

أذكر في بدايات المرحلة الثانوية كيف ذاع صيت أغنية "امرأة مستقلة" لفرقة "ديستني تشايلد"وعلى نحو فاتن، لقد ظلت كلماتها حوالي عامٍ كاملٍ تتردد في كل مكان، أسمعها كل يوم حيثما ذهبت، على موجات الراديو وفي المقهى الذي كنت اعمل فيه بدوام جزئي:

"عندي سؤال، أخبرني ما رأيك بي..

أنا أشتري مجوهراتي الخاصة وخواتمي..

أتصل بهاتفك الغبي حين أشعر بالوحدة فقط..

حين ينتهي الأمر، انهض واذهب وحدك..

عندي سؤال، أخبرني كيف تشعر ناحية هذا..

الأمر في علاقاتي دوماً النصف بالنصف..

الحذاء في قدمي، اشتريته أنا..

اللباس على جسدي، اشتريته أنا..

لأنني أعتمد على نفسي إن أردت، أعتمد على نفسي..

إن أردت أن تدللني، لا أمانع وهذا مالك..

لكن لا تعتمد على أحد آخر لإعطائك ما تريد.."

لقد كُتبت الكلمات بمداد نسوي مشتعل، ولم أحتج لكثير وقت حتى أذوب في نيرانها المسمومة، فكرة الاستقلال تحديداً كان لها مفعول السحر عليّ، كأنها تعويذة النجاح حيث لا عوائق ولا حواجز.. "اشتري كل حاجياتكِ بنفسكِ".. "لا تتركي المجال لأي رجل لمراقبتكِ والقيام على شؤونكِ"، وبعبارة أوضح: "كوني انثى قوية، مستقلة بذاتك، مقتدرة، عزيزة بنفسك، فمن يحتاج الرجل "!

والحقيقة التي كنا نسمع ونعي: "كوني أنت الرجل!"

تشربت هذه الأفكار بنهم شديد كأنها غذت الجوع والحاجة للقوة فيّ، حيث هي القالب الملائم والأكمل بعيداً عن الأنوثة حيث الضعف واللامنطق !

ثم مالبثت أن خطوت أولى الخطى في رحلة التغيير، بدءاً بمحو كل مظاهر الحاجة والضعف في صورتها الأنثوية، وانتهاءً بالعزم على تحقيق معاني الرجولة والتفوق -كما فهمتها- عبر ممارسة الرياضة وتحصيل اللياقة البدينة.. حتى أنني انطلقت في تعلم فنون المصارعة والقتال في أولى السنوات الجامعية (وهو ما كرهته فيما بعد..).

كان الزملاء يرونني في الجامعة كفتاة صلبة شديدة وصعبة المراس، شيئاً ما "مسترجلة" بعيدة عن الأناقة والتزين ومايمتّ إليهما بأي صلة، لم أتحرج إطلاقا عن جعل الوصف المناسب لي أني "نسوية"..

نعم، وجدت أن هذا اللقب هو ما يليق بي ويعرّفني آنذاك..

لكن هذا الجانب المظلم لم يكن يمثل إلا بعضاً مني، فالشق الآخر الذي حرصت على تكميمه، لم يرض الصمت سجناً له، بل ظل حياً يستنجد داخلي ويصرخ طلباً للحرية،

كشيء تحبه بشدة وتقبله بين الفينة والأخرى، إلا أنك في ذات الوقت تواريه عن مرأى الأعين وتخشى أن تفقد قيمتك بسببه، أو أن يعيّرك الناس به، بجانبه كنت أشعر بالصدق والصفاء يتدفق في لحظة من التجرد أرغب فيها عن صنم الاستقلالية وما ينطلي تحته من متطلبات مستنزفة علي أن أبدو في ضوئها دوماً قوية لا أقهر، ذلك الجانب الاصيل فيَّ كان يريد بشدة ما حاولت طمسه من رغبة في بيت دافئ وعائلة وزوج وأطفال أحبهم ويحبونني، ذاك الجانب كان يهمس لي أن لقب "السكن" هو ما يليق بي حقاً..

غير أنني مع ذلك كنت أبدي للآخرين غير ما أخفي، كنت أصر وأؤكد بحزم على موقفي بالبعد عن الأنوثة والزواج ومايذكرني بأنني فتاة..

أذكر يوما أنني وإحدى الصديقات المسلمات التي كانت تشاطرني أفكاري أخذنا على أنفسنا عهداً في شكل ساخر بعدم التفكير إطلاقاً بالزواج، من بحاجة شريك على أي حال؟

سنوات مديدة من عمري مضت وانا أحاول السير عكس حاجتي وميولاتي، بذلت واسع الجهد لأصبح بقوة الرجال وأنافسهم، استهلكت نفسي في معركة وهمية خاسرة كان الخصم فيها على وجه الحقيقة هي "فطرتي"..

لا أنسى ردة فعلي ذات مرة حين وصلت مجموعتنا الطلابية رسالة على البريد الالكتروني من إحدى الزميلات تعلِمنا فيها أن أحد المحلات العصرية، والذي يقع على بضع خطوات من الجامعة، أقام تخفيضات كبيرة على الأوشحة التي يمكن ارتداؤها كحجابات أنيقة، قالت أن بعض الوشاحات براقة وفيها خرز جذاب أيضاً، لحظتها تعاملت مع الرسالة كإهانة لشخصي، ولشدة ندمي اليوم، رددت عليها برسالة لئيمة وصلت لكل المجموعة من نوع: "ماذا إن لم نرد ارتداء حجاب جميل براق أو ذا خرز!" كلام فارغ بلا فائدة ولا يشبهني، لؤم غير مبرر..

لكن تلك الرسالة همست إلى شيء غريب داخلي، لقد أشعلت فيّ رغبة دفينة خِلتُ أنها اندثرت أو تهشمت منذ زمن، شعرت بحماس غير مفهوم للذهاب إلى المحل وإلقاء نظرة على المجموعة، ولربما اختيار وشاح جميل من بينها، غير أنني قدّرت مباشرة أن في هذا خيانة لمبادئي وما ارتضيته لنفسي، لذلك أنّبت صوتي الداخلي وأمرته بدفن هذه الحماقات الأنثوية الغبية فوراً!

قلت لنفسي.. انظري إلى هذه الفتاة، انظري إليها تتحدث على الملأ عن هذا الشيء "الأنثوي" السخيف! ألا ترى الذلة والسوء في رغبتها بالتزين والتأنق؟

لا يهم البتة إلى أي درجة تتمنى إحدانا أن تكون أنثى، مهمتنا الأولى هي مدافعة وتنحية هذه المشاعر الغبية المرتبطة بالضعف حتى من دواخلنا..

لم أكن فعليا قادرة على تشخيص حالتي، لماذا أتمنّع عن إظهار انوثتي؟ أهو المجتمع؟ أم تراه الإسلام؟ أم هما معاً؟؟

لطالما كنت أعتقد أنني عبارة عن تركيبة هجينة من المعايير المجتمعية المصرية والأمريكية المعقدة مع دين الإسلام، كلها مجتمعة أودت بي إلى الظهور على هذه الصورة الرافضة بتعصب للأنوثة وما ينشق عنها..

واقعة أخرى لا تغيب عن ذاكرتي كانت في السنة الجامعية الأولى حين تأخرنا في أحد اجتماعات جمعية الطلاب المسلمين حتى حدود الثامنة أو التاسعة ليلاً بعد العشاء، هناك وبعد أن تفرقت الجموع واتجه كلٌّ صوب وجهته، وإذ بأحد الإخوة يتجه إلي أنا وثلة من الفتيات، بعد أن خمَّن أنه من الخطر علينا السير وحيدات في عتمة الليل، فاقترب وسألنا على مسافة محترمة إذا ماكنا بحاجة لمن يرافقنا في طريق العودة إلى السكن الجامعي؟ ثم ما لبث أن اقترح بمنتهى الأدب أن يواصل السير معنا حتى نعبر الحرم الجامعي الضخم، الذي كان مليئا حينها بالمتسكعين والطلبة السكرانين..

كـان عرضـا نبـيلاً وشـهماً مـن طرفـه، إلا أن الغضـب اشـتعل ناراً فيّ لجرأتـه تلك!لقـد وجـدتها طعنـةً مباشـرة لي، كيـف يجـرؤ علـى التلمـيح إلى أنـني لسـت قويـة مسـتقلة قـادرة علـى حمايـة نفسـي؟ كيـف يجـرؤ علـى الإشـارة إلى أنـني بحاجـة لرجـل يرانيـي ضـعيفة محتاجـة إليـه؟ هـل يظـنّ أنه أقوى مني مثلاً؟!

قبـــول هـــذا العـــرض كـــان يعـــني لي الاعـــتراف بضـــعفي وحـــاجتي، كـــان يعـــني لي التنـــازل بخزيٍ للهزيمـة والتخلي عـن الظفـر باستقلاليتي عـن الرجـل، كـان إقـراراً صـريحاً بأنـني لا أختلـف عن الفتيات الساذجات الأخريات..

لذا كان جوابي بكل بساطة وبرود: "لا، شكرا!" ثم دخلت مسكني وأنا أغلي..

هـذا كـان الظـاهر، أمـا في الـداخل فكنـت أسـائل نفسـي بدهشـة كيـف وصـل بي الحـال إلى هـذا الحـد؟ لمَ هـذا الـرفض العنيـف لطلـب صـادق نبيـل؟ ماعهدتـه عـن نفسـي هـو أنـني شـخص لطيـف هـادئ لا يسـتفز بسـهولة، فلمـاذا اسـتأت علـى الفـور منـه؟ ألم يكـن مـن المحتمـل فعـلاً أن يعـترض سـبيلنا أحـد المتسـكعين السـكارى؟ فالاخبـار عـن النسـاء الـلاتي تعرضـن للاعتـداء هناك لا تكاد تنتهي!

لمـاذا تصـرفت علـى هـذا النحـو المنفعـل؟ هـل جعلـت الكرامـة الـتي في صـورتها المرسـومة لي أولى من سلامتي؟

علامـات اسـتفهام كثـيرة، وصـراع محتـدم مـن التناقضـات، أحسسـت أنـني فعـلا تائهـة ومشـتتة بـدون وجهـة أو بوصـلة، مـن ينتشـلني مـن حـيرتي؟ لمَ كـل هـذا الاخـتلاف بـين الـذكور والإناث؟ لماذا لسنا مثلهم؟ من يفك عقدة النقص وشعوري الدائم بالحرج من الجهر بأنوثتي؟

هـل النسـاء هـنّ نسـخة سـيئة ومشـوهة عـن الرجـال فقـط؟ هـل نحـن شـيءٌ مقلّـة جـاء خطـأً إلى هذا الوجود؟

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا أوجدنا الله على هذه الشاكلة من الأساس؟ لماذا لا نستطيع أن نكون شقائق الرجال في كل شيء؟ لم لا نكون نسخة أصيلة عنهم؟

وذات ليلة، وبينما أنا غارقة في ظلمات حيرتي قررت الامساك بالقرآن والبحث هناك عن إجابة تسكنني..

وبالفعل، ارشدني الله عز وجل إلى بداية الجواب..

كانت آية في القرآن قلبت الموازين، وانتشلتني من عذابات الحيرة والتآكل..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء السادس): التوجيه القرآني

تعبت جداً حين وصلت لهذه النقطة..

تعبت من النظر إلى الحياة كمنافسة مستعرة بين الذكور والإناث، تعبت من الشعور الدائم بالحاجة للمقارنة مع الرجل والتفوق عليه حتى أثبت ذاتي لنفسي ولكل الناس، تعبت من الدخول في معركة وهمية لا غالب فيها ولا مغلوب، في حربٍ مستنزفة استهلكتني وسلبتني راحتي وطمأنينتي كمن دخل متاهة ثم ضاع داخلها دون أن يعرف كيف الخروج..

كانت الجامعة أول مرة أعيش بعيداً عن بيتي وعائلتي، حاولت فيها أن أجد موطئ قدمي بين الأقدام، بصمة خاصة أحقق بها نفسي بنفسي، غير أنني مع ذلك ظللت مرتبطة بتفاصيل كثيرة من المحطات السابقة على رأسها القرآن الذي شكّل جزءا كبيراً من البيئة التي كبرت فيها وترعرعت ولله الحمد، لذا لم أجد بداً من البحث عن راحتي بين دفتيه..

هذه المرة أقبلت على قراءته بروح عليلة تنشد التعافي من الصراع والتنافس، فتحت المصحف على سورة المائدة من غير تدبير مني..

وإذ بعيني تسقط مباشرة على الآية 48 منها: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فأنبئكم بما كنتم فيه تختلفون}.

على الرغم من أن هذه الآية لم تأت على ذكر الاختلاف بين الجنسين بالعبارة، وخصت بالقول العالمين كافة، غير أنني عندما قرأتها شعرت أنها أنارت معنىً غاب عن منابت الإدراك فيّ، معنى سيقلب الموازين ويخرجني من ضيق الحيرة إلى سعة السكون..

أحببت كل كلمة وكل حرفٍ فيها، كل جزءٍ منها لامس مكاناً عميقاً في داخلي، ومع انني قرأتها مراراً قبل تلك اللحظة، إلا أنني أحسست آنذاك وكأنها المرة الأولى، كيف لا وقد جادت عليّ بعبر وحلول أزالت عني غشاوة التيه وجعلتني أرى الحقيقة على ماهي عليه بلا شوائب أو تزييف..

1. كيف تحكم على ما يعرض عليك كيفما كان؟

ثمة طريقتان في الآية للحكم على أي شيء؛ إما بقياسه على ما أنزل الله من الحق في كتابه العزيز، وإما بناءً على الحدس والأهواء، هذا الجزء منها يضعنا على مفترق طرق أمام سبيلين: إما الحق وإما الأهواء، ومن ثم يوجهنا الله لاتباع سبيل الحق المنزل من لدنه..

2. الاتباع العاقل ضد التقليد الأعمى:

في بداية الآية يأمرنا الله بأمرين: أولهما إيجابي وثانيهما سلبي، وهما على التوالي: "احكم" و"لا تتبع"..

وهو ما قادني إلى القول إن التعامل مع أي عارض أو مشكلة يتم إما عبر التفكير العاقل الفطن على الأشياء ومن ثم الخروج بحكم سليم، وإما باتباع أهواء الآخرين وما يملونه علينا بقيلهم وفعالهم..

وقع في نفسي أنني كنت من هذا الصنف الأخير أتبع ما أملته علي أعراف المجتمع، وأتخذ منها محددات للحكم على نفسي كامرأة، وكيف ينبغي أن أفكر وألبس وأكون..

عقلية "النساء سيئات، والرجال جيدون" لم تكن أصيلة عندي في بادئ الأمر، لكنني سمحت لها باجتياحي وتعذيبي وزعزعة أمني واستقراري لسنوات حين جعلت المعيار هو الثقافة السائدة وما يظنه الناس، وهو بالضبط ما لعبت النسوية عليه ..

كنت تابعة فقط، ولذا كنت بحاجة للتوقف عن الاتباع ثم جعل المعيار الذي أحكم من خلاله على نفسي هو كلام الله سبحانه..

3.الاختلافات المتعمدة:

بعدها يقول الحق سبحانه {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً}.

كنت أنظر للنساء دائما على أنهن النسخة السيئة الضعيفة من الرجال، كنت أرى الرجال هم المعيار المثالي لقياس إنجازاتي، علي أن أكون مثلهم إذا ما أردت العيش عزيزة كريمة، فهم الأصل ونحن التقليد ..

غير أن هذه الآية نسفت كل تلك الأفكار وجعلتها دكاً، فالله أحسن الخالقين هو الذي جعل الاختلاف سنة، الأصل في الحياة هو وجود نسخ مختلفة لكل منها شرعة ومنهاجا، لكل منها كتاب تعليمات خاص بها، وكل محاولة لتشغيل إحداها بكتيب الأخرى سينتج نسخة مشوهة بعيدة عما خلقه الله في احسن تقويم..

4. لكن لماذا!

ثم يقول تعالى: "ولو شاء لجعلكم أمة واحدة"

لو شاء سبحانه لخلقنا متماثلين نسخاً عن بعضنا، أو لجعل البشر كلهم إما إناثاً وإما ذكوراً، لكنه لم يفعل، إرادته اقتضت أن نكون على ما نحن عليه مختلفين، فما الحكمة إذن؟ لم لم يفعل ذلك ﷻ؟

5.الحكمة:

تأتي الإجابة مباشرة: {ليبلوكم فيما آتاكم}

لعل هذه أقرب جملة لقلبي في الآية، لما قرأتها رفعتني فوراً إلى مكان مريح لا تشويش فيه ولا غموض، فكل القصة وحبكتها: "امتحان"!

كل مخلوق له امتحانه الخاص، ليس منا من بيده الخروج أو الهروب منه، وكل ما أُعطيناه أو حُرمنا منه هو جزءٌ من هذا الـ"اختبار".

عندما وقر هذا المعنى في قلبي تغير موقفي من الاختلاف ومن الحياة جملة وتفصيلاً، هذا المعنى مدني بالسلام والهدوء، فالأمر مقصود وبكل حكمة، إنه "امتحان".

6. كيف أنجح في الامتحان؟

كان سؤالي مباشرة بعد علمي بأني ممتحنة هو: كيف أجتاز الاختبار بنجاح؟ فكان الجواب: "فاستبقوا الخيرات"

عمل الصالحات، إجابة على بساطتها أخذت انفاسي، ولاقتني بالوضوح والصفاء، أتت على ذاك البنيان المهترئ وهدمته من القواعد.. الهوس المستمر بالرجال الذي ملأت به راسي لسنوات، الأفكار المضللة التي كانت إجابتها في اقتحام كل مضمار ومسابقة كل الخلق في طرقهم، الإملاءات التي تكرر أن الحل الوحيد بسحق الأنوثة وقتل المشاعر والمخاوف التي قد تخون صاحبها على حين غفلة وتسحبه حيث المذلة والضعف..

كان علي أن أفعل كل هذه الأشياء المستنزفة ليس لأنني أريدها، وانما لأن عرش المساواة يقضي بذلك عليّ !

الفكرة كانت صراع وجود! كان كله مرهقا، غير منطقي، وغير ممكن وبلا جدوى!

كلها ضلالات وأثقال انزاحت عند صدري بعد أن تلقيت الإجابة القرآنية، كانت دعوة صريحة للتحرر تناديني: " أسقطي كل هذا من حسابكِ، كل ما عليكِ فعله هو الذي خلقت لأجله ((أنتِ))، ركزي في امتحانكِ فقط وما ستسألين عنه، هوني عليكِ"..

7.النهاية:

{إلى الله مرجعكم}..

هذه الجملة كانت الربيع لقلبي والحياة لروحي، اهدتني شعوراً بالارتياح لا يوصف ..

لكل اختبار إجابة وعاقبة تليها، وكذلك شأننا، فبمجرد انتهاء الامتحان، سنرد جميعنا إلى الكبير المتعال، هناك حيث سيجد كل منا ما عمله محضراً..

فكرة رصينة أخرى لا مكان فيها للرجل كمعيار، فالمسألة كلها بيني وبين خالقي وحده سبحانه، مايحكم قيمة أفعالي وصحتها من عدمها هو مدى استجابتي لأمره وتسليمي بقضائه وحكمته، كل ماعلي هو أن أكون على مراده هو مني لا مرادي منه..

ثم ذيلت الآية بعبارة "تختلفون" لتكتمل الصورة ويتجلى الاختلاف في معناه الأتم، حيث لا حاجة للتحسس أو القلق، فكوني أنثى هو إرادة الله سبحانه وهي مدار اختباري..

(الآية 48 من سورة المائدة).

لن انسى هذه الآية العظيمة ما حييت والمعنى الجليل الذي بثته في أوصالي..

كانت فعلاً غيثي بعد الظمأ..

قرأتها مرات عديدة، أغلقت المصحف ثم أخذت ألملم هذه المعاني كلها في رأسي، ثم أعدت فتحه وقلت لنفسي: نعم، هذه هي الإجابة التي أبحث عنها منذ سنوات.. الحمدلله..

كل ذاك الصراع لا أصل له، إنه مشتعل في راسي فقط، أشقيت نفسي بنفسي حين أسلمتها للجوانب المظلمة من الثقافة والبرمجة الاجتماعية المشوهة وانتهاء بالطرح النسوي العقيم، هذا ما اهدتنيه النسوية بكل تناقضاتها البعيدة عن الهدي القويم..

في ظلال القرآن عرفت الحرية الحقة، بعد أن أهدرت سنينا من عمري في الجري وراء السراب..

هذه كانت البداية في رحلتي للتغيير، إذ أنني احتجت لسنوات أُخر لأستعيد عافيتي بالكامل من تلك السموم..

فالعادات السيئة لا تموت إلا ببطء شديد..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء السابع): الزواج

لم تتبخر الأفكار النسوية من ذهني بين ليلة وضحاها..

ولذلك كان طلب شاب من جمعية الطلاب المسلمين لرقم والدي ليفاتحه بالزواج مني محركاً لكثير من الخوف والقلق داخلي ناحية الفكرة التي أعادتني إلى حلبة المواجهة الفكرية المحتدمة سابقاً..

لا يمكن! كيف يريدني هذا الشاب للزواج! لماذا؟ هل يبدو علي سمت الراغبات بالزواج؟ هل يبدو أنني غير قادرة على تدبير حياتي أو الاستغناء عن مساعد رجل لي؟ كيف يراني الناس؟ أي انطباع أترك فيهم عني؟ ما الذي يحاول قوله هذا الرجل؟؟

فكان أن رفضت عرضه، الزواج ليس للمستقلات أمثالي، إنه للضعيفات العاجزات فقط!

لكن مرور السنوات أشعرني بأن رفضي للشاب كان متسرعا وبلا مبرر، ولذلك عدت للتفكير بالأمر ومنحته فرصة حين عاد لتكرار طلبه بالتواصل مع والدي، حتى بعد تردد طويل خرجت تلك الـ "نعم" مني، وحتى بعد المحادثات الطويلة التي دارت بين عائلتينا حول الموضوع، كان هناك بقايا من التردد والشك لديّ في الإقدام على هذه الخطوة، لم أكن اعرف حقاً ما هو شعوري وما سببه، هل هو نتيجة لعوالقي الفكرية المرتبكة حول الجنس، الزواج،..؟ أم ماذا فعلاً؟

وبحمدالله، فمع نهاية العام الجامعي الأخير كان قراننا قد عُقد..

نعم، تزوجت.. وخالفت درب كل زميلاتي في الدفعة وأمام استغراب الجميع، كان مضحكاً أن تتزوج فتاة الأمس المعارضة لمؤسسة الزواج، كيف تتحول فجأة وتتزوج في سن صغيرة ضد أفكارها التي كانت تدعو لها!

انتهت السنة الجامعية الأخيرة وتخرجت ..

لكن تلك كانت وقفتي في ذاك العالم.. لم يكن أمامي عمل ينتظرني، لا دراسات عليا في استقبالي ولا حتى شغلٌ تطوعي أتباهى به ..

أبداً.. لا شيء إلا أنني سأكون "زوجة" لا أكثر..

زملائي كانوا قد حجزوا مقاعدهم في كليات الطب، أو المحاماة، بعضهم شقوا طريقهم صوب الوظائف المرموقة في وول ستريت وغيرها، أما أنا فبدأت عامي الأول بعد الجامعة كربة بيت متخرجة من هارفارد للتو... ويا للإنجاز !

الأمر شوّش فكري وآلمني مدة، فمفاهيمي القديمة حول الأنوثة وحقيقتها وقيمة ما يترتب عليها من أدوار واستحقاقات كلها عادت تراودني وتشعرني أنني أهدرت مقعدي الثمين في هارفارد سدىً حين لم أحسن استغلاله، هناك يقولون لك أن عليك بعد أن تحصل على شهادتك من هذه الجامعة الفخمة أن تستثمرها في تحقيق "إنجازات عظيمة"، يقولون أنك يجب أن تبدأ "تتبع شغفك"، تكافح حتى "تبلغ كل امكاناتك"، لتحقق "تغييراً في المجتمع"، كيف لا وأنت من "النخبة" الذين درسوا في هارفارد!

لكنني تزوجت.. أصبحت ربة بيت تطبخ وتكنس وتنظف.. هذا كان كل شيء ..

هل كان هذا إنجازاً عظيماً؟ هل هذه هي أعلى إمكانياتي؟ ماذا عن شغفي؟ ماذا عن تحقيق التغيير في مجتمعي؟؟

كثيراً ما كنت أمتلئ خجلاً بنفسي حين ألتقي زميلاتي اللواتي شققن طريقهن وواصلن المسير الذي لطالما تطلعت إليه..

فهذه تحدثني عن منصبها المؤسساتي، وتلك تسهب عن التحاقها ببرنامج دراسات عليا شهير..بينما أنا ها هنا في بيتي وبين جدراني، لم أفعل شيئاً..

ناقشني زوجي مراتٍ كثيرة حول الموضوع بكل هدوء وحكمة، حاول طويلاً أن يريني الأمر من زاوية أكثر واقعية بعيداً عن المعاني التي ركنت إليها وبقيت حبيسة داخلها، كنت ارتاح لكلامه فترة، ثم لا ألبث أن اعود لبث الشكاوى من وضعي البارد بلا هدف أو إنجاز غير كوني ربة بيت..

لقد بقي في ذهني أن هذا الذي أعيشه لا يدخل في أي تعريف للمرأة الناجحة، فحتى حين لم أرد أن أكون نسوية، كنت أرى هذا الوضع مثيراً للشفقة بكل وضوح!

تعلمت في سنتي الأولى من الزواج كيف أهتم بنظافة بيتي وشؤونه، حصلت على رخصة القيادة، ودخلت دورات مكثفة في اللغة العربية الفصيحة والتجويد، لكنني لم أشعر بالكفاية..

وفي السنة التالية عملت كمرشدة إسلامية في جامعة خاصة بالنساء، وهو ما أشعرني بتحسن كبير، أحببت العمل نفسه، أحببت الفتيات والمهمات المطلوبة مني..لكن هذا لم يكن كل شيء، فالعمل أشعرني بأنني أعود للقيام بما عليّ فعله، هناك شعرت بأنني إنسان طبيعي من جديد، امرأة محترمة لديها استقلالها ودخلها ولا تعتمد على زوجها ليعيلها!

كنت متزوجة.. نعم، لكن اندفاعي لكسب دخلي الخاص والاستقلال لم تكن قد خمدت، لم أشأ المكوث في البيت كأنثى بيت لا حول لها ولا قوة، كيف أمد يدي لزوجي كلما احتجت شيئا صغيراً كان أو كبيراً، لا يمكن!

هذه المرحلة لم تستمر على حالها، فسرعان ما تغيرت عندما أضيف لدوري كزوجة دورٌ آخر تماماً.. ذاك هو دور الأم..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء الثامن): الأمومة

ظللت سنواتٍ طويلة أقنع نفسي بعدم رغبتي بالأمومة.. أبداً..

ساعدت في رعاية أشقائي الصغار وأنا يافعة، غيّرتُ مئات الحفاضات، امتلأت ثيابي بكثير من الطعام المبصوق أثناء إطعامهم الفواكه والخضار المهروسة، مهمة إلباسهم لم تكن تختلف عن محاولة إدخال أخطبوط يتلوى ويتململ في أغطية قماشية قاسية، عدا أني أتقنت فن هزهم ليناموا..

لقد اكتفت تلك الفتاة بهذا القدر من التربية والرعاية، لم يكن لديها أي استعداد لفعل الشيء نفسه مع دفعة جديدة من الصغار، إنها مهمة مضنية مليئة بالمهام والأشغال ..

لكن وانا أتقدم قليلاً في السن وأنضج بعض الشيء، وخصوصاً بعد الزواج، بدأ هذا الشعور يضمر شيئا فشيئا في داخلي ليظهر بدلاً عنه رغبة ملحّة في الإنجاب، لقد أردت الآن أن أكون أماً..

بعد مرور عامين على تلك الوظيفة في الجامعة، وإذ بي أحمل بين أحشائي مولودنا الأول، وقبل موعد الولادة المتوقع بأشهر قليلة تركت عملي، حتى مع احتفاظي ببعض بقايا ومخلفات خرافات الاستقلال والمرأة الممكنة، إلا أنني كنت أريد في قرارة نفسي المكوث في البيت للتفرغ لتربية طفلي ورؤيته وهو ينمو اليوم تلو الآخر، ولذلك لم أتوانى عن اتخاذ هذه الخطوة مدفوعة بغريزتي الواضحة..

لم أرد أن يقوم أي شخص آخر بهذه المهمة عني، عزمت على أن تكون تربية هذا الطفل وما سينعم الله علينا به من ذرية من نصيبي أنا، أردت أن أكون أفضل أم يمكن لهذا الصغير أن يحصل عليها، أردت أن أشهد كل مرحلة من حياته بكل تفاصيلها دقيقها وجليها، لم

أكن أريد تفويت طفولة أي من صغاري، تلك كانت وظيفتي وميدان عملي، أي عمل عساه يكون جديراً أن أفوت فيه ولو ثانية من حياة طفلي؟

عندما أخذ طفلي الأول أولى أنفاسه في هذه الدنيا حملت جسده الهش الناعم وأنا أنظر بدهشة لخلقته الصغيرة التي تجلت فيها كل معاني الإجلال والتسبيح للعظيم الذي أحسن كل شيء خلقه سبحانه، كيف استودع الله هذه النفس عندي وعهد إلي القيام على تغذيتها ورعايتها وتعليمها وإيوائها.. كيف أوكل الله لي ولزوجي هذه المهام العظيمة ونحن البشر الضعفاء بذواتنا..

كُتلة الرقّة تلك كانت رعيتي التي استرعاني الله عليها، كانت تكليفاً شعرت أمامه بالرهبة والثقل والانبهار في آن واحد، كيف سأربي هذا المخلوق؟ كيف سأتمكن من رعايته وتغذية جسده، تشكيل عقله، وعجن شخصيته؟

تفاصيل هذه العلاقة وأحداثها تتسم بصبغة متعالية عن الاقطار الدنيوية المادية كقطعة من نسمات الآخرة، إنها من عظيم معاني الرحم وما ينشق عنه..

بينما احتضنت طفلي بين ذراعي للمرة الأولى نابني شعور لم أجربه قط عزمت بموجبه وقررت حماية طفلي وعدم السماح لأي ضرر أن يمسه بحول الله وقوته، لا من الآخرين، ولا مني انا..

قررت أن لا أسمح لأي من أوهامي وارتباكاتي أن تؤذي طفلي البريء الذي يرقد بثقة وضعف شديدين بين يدي، أياً كانت تلك الحماقات النسوية التي امتلأت سابقاً بها عن الاستقلال أو التمكين أو القوة.. فقد آن لها أن تختفي، لن تمس أدرانها هذا النقاء، لن تعبر إليه مني..

كـان هـذا المخلـوق يعتمـد علـي مئة في المئـة في كـل أمـره، كيـف يمكنـني في هـذه الحالـة أن أطلب الاستقلال عنه؟

هنـاك وأنا أحمـل صـغيري الـذي جعلـني الله أمـاً لـه غـدا وثـن الاسـتقلال جليـاً أمـامي علـى حقيقته.. مجرد هراء لا طائل منه..

تـرتبطين كـأم بصـغيرك في أسمـى العلاقـات الإنسـانية، تصـبحين في إصـغاء تام وانسـجام مبهـر مـع طفلـك، أنـت الوحيـدة الـتي تـدركين كـل تفاصـيله مـن بـين البشـر، معـدل تنفسـه وإيقاعـه، حـرارة جسـمه، تعبـير وجهـه ولغـة جسـده، لا تخفـى عليـك حاجاتـه ومـراده، وإن كانـت أبجديـة تواصـله الوحيـدة هـي البكـاء والصـراخ وهـو بـين يـديك، فهـو في قمـة عجـزه يعـرّف لـكِ معـاني الثقة والحب والرحمة..

علمـاء الـنفس يسـمون هـذا بنظـام الارتبـاط الخـاص، فهـو نظـام عصـبي مـدمج يـدفع بـني آدم إلى البحـث باسـتمرار عـن روابـط مسـتدامة مـع الآخـرين، وهـو مـا يعـني بالدرجـة الأولى مقـدمي الرعايـة الأساسـيين الـذين هـم عـادة الأب والأم، لـذا فـإن أي تعطيـل أو إخـلال بهـذا النظـام في المراحل التكوينية للطفل قد ينتج عنه آثار وتبعات طويلة الأمد إلى مستدامة أحياناً..

الأمومـة نظفتـني مـن بقـايا الأكاذيـب النسـوية الـتي بقـي كثـير منهـا عالقـاً في أركـان روحـي وزوايا ذهـني كخيـوط عنكبـوت قديمـة، بكـل مـا احتوتـه الرحلـة مـن حمـل ووضـع ومـروراً بالرضـاعة وانتهـاء بالسـعي لتربيـة وبنـاء انسـان سـليم.. كانـت تلـك أكثـر مهمـة مُحـرِّرَة قمـت بهـا، كانـت تمكينـاً حقيقيـاً لي، إنهـا أصـعب مـا عملتـه وأكثـره إسـعاداً لنفسـي، هـي هـي رحلـة اجتمعـت فيها معاني المكابدة، الصبر والثواب، هي صعوباتٌ تهون مقابل ما فيها من لذات..

رُزقت بأربعة أطفال في حدود خمس سنوات ونصف ماشاء الله..

كل ضحكةٍ خاليةٍ من الأسنان، كل لمسة ناعمة لأصابع صغيرة على وجهي، كل ضحكة وكل قهقهة معدية.. كلها تغرقين في حبها في هذه الرحلة العجيبة، فحين يرتمي جسم صغير في حضنك، يعانقك، يلف ذراعيه الصغيرة حول عنقك.. لحظتها ينبض قلبك ويتدفق حباً لا تسعه كلماتك، شعور لا مرادف له في كل قواميس اللغات...

نعم، الأمومة تخرجك من حيز الاعتياد والإلف، في رحابها تنتبهين مجدداً لتلك التفاصيل التي كانت مملة من حولك؛ خنفساء صغيرة على الارض، ورقة تسقط من على الغصن، سنجاب يجري.. كلها ستثير دهشة طفلكِ وستوقظ حماسه وهو يلاحظها لأول مرة ويحدثك عنها، وستبث دهشته الحياة في نظرتكِ القاحلة في كل ما اقتات الاعتياد والتكرار عليه، سيصحو الطفل القابع في داخلك من جديد، ستمنحك أسئلته وملاحظاته فرصة العودة بلا تأشيرة إلى ديار اللعب والطفولة، ستتحول الأشياء العادية استثنائية في عينك وأنتِ تراقبينها بعيني طفلك الحبيب هذه المرة..

هذا لا يعني أن مسيرة الأمومة محفوفة بالزهور والفراشات وخيوط الشمس الذهبية، فلست هنا لألفّ الحقائق بورق هدايا براق، بل هناك محطات صعبة ومؤلمة فعلاً في الرحلة كما هو الحال في كل مناحي ومنعطفات الحياة الأخرى، الأمومة صعبة، وفيها لحظات وحدة وإرهاق كثيرة، فيها الأرق وقلة النوم، فيها كثير من المهمات التي قد تجدين نفسك تنسين بعضها..

لكن الأمومة مع ذلك تربّيكِ بشكل لم تتوقعيه، إنها تدفعك إلى محاولة الارتقاء بنفسكِ وتطهيرها من كل ما لا يرضيك من صفاتكِ، تجعلكِ قادرة على الوقوف في وجه مخاوفك بحثاً عن الطمأنينة والأمان، تؤزكِ إلى البحث عن أفضل نسخة منكِ، إن لم يكن من أجلك فمن أجل صغارك الذي يتطلعون إليك بإعجاب وترقب..

الأمومة تكاد تكون فرناً تصقل فيه شخصيتك على مهلٍ، كقطعة ذهب تنقيها الحرارة وتخلصها شيئاً فشيئاً من شوائبها، فإن عملتِ على تخليص نفسكِ من إشكالاتك واستشعرتِ الفرص العظيمة المتاحة لكِ في رحلتك وجدتِ نفسكِ تخرجين من الناحية الأخرى شخصاً أفضل بكثيرٍ بإذن الله..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء التاسع): أن تبلغ أعلى إمكاناتك

ما الذي يعنيه أن يبلغ الإنسان، رجلاً كان أو امرأة أعلى إمكاناته؟

لنرى إذا ما كان بإمكاننا تفكيك هذه العبارة التي بتّ أراها انها ملغمة ومشهرة كسلاح في وجه النساء على وجه الخصوص..

"كن كل ما تستطيع أن تكونه" هذا شعار الجيش الأمريكي، والذي لا يختلف فعلياً عن الشعارات –أو الهمزات– النسوية التي تهمس لامرأة العصر: "حققي أقصى امكاناتك"

هو ذاته..

كل من الجيش والنسوية الغربية يلعبان على نفس الوتر ويستخدمان ذات الوسائل في استقدام الجنود الجدد الذين يملؤوهم رغبةً وهمية في الانضمام إلى مسعاهم والعمل بلا وعيٍ في سبيله، فتكون النتيجة في فردٍ قادرٍ على رفع السلاح في أرض المعركة كجندي مخلص بسذاجة لقضيتهم، كلاهما يوهمانك أن هذا الانضمام سيمكنك من الغوص في مجاهل نفسك والاستفادة من كافة أجزائها، لا سقف ولا حدود لإمكاناتك ..

إياكَ أن ترضى بما أنت عليه! تطلع دوماً للأفضل! أنت تستطيع!

فمهما وكيفما كنت الآن.. هناك ما هو أكثر !

لا تركن، لا تخنق قدراتك، لا تكن عادياً.. يمكنك أن تكون أكثر من ذلك بكثير..

الجيش يقول: "أنت الآن مواطن، لكن ذاك ليس مقامك، بل مقامك هناك كجندي يحمل السلاح في أرض المعركة ويقاتل"..

وبالمقابل فالنسوية تقول لكِ: أنت الآن امرأة، أم، أخت، زوجة، ابنة.. أنتِ أنثى عادية.. لكن ذاك ليس كل ما يمكنكِ أن تكوني عليه، ما يليق بكِ هو أن تكوني حرة مستقلة بذاتك، لقب مديرة تنفيذية في شركة كبرى ينصاع لأمرها أشد الرجال، كوني محاربة، إلهة (استغفر الله)، قوية، مخيفة، متمردة لا تنصاع لأحد!

ولتلك الشعارات أقول مع كل امرأة عاقلة: لا، شكراً.. انا امرأة أنثوية تقليدية، وذاك يكفيني..

مجرد قدرتي على القيادة بأعلى سرعة على العداد على الطريق السريع لا تعني أنني يجب أن أفعل !

كونكَ يمكنك أن تكون أو تفعل شيئا، لا يعني أن "يجب" تكون كذلك !

فالحكمة ليست أن تسعى بشكل أعمى ودؤوب لتحقيق كل إمكاناتك أياً كانت، ليست أن تجتهد لتكون كل الذي يمكنك أن تكونه في الحياة، فالاحتمالات لا نهائية والخيارات ممكنة، إنما الحكمة أن تتوقف وتحدد عن بينة وبصيرة ووعي ما هي الجوانب التي تستحق أن تعمل على بلوغها وتحقيقها من إمكاناتك تلك ..

كل تلك النداءات الخبيثة التي على هذه الشاكلة من الجيش أو النسوية لا تعدو أن تكون تلاعبات صريحة في رأسك..

لا يكفي ان تكون مواطناً جيداً، يجب أن تكون جندياً أو قنبلة نستخدمها في فوهة مدافع حروبنا، لا يكفي أن تكوني أما أو اختا أو زوجة.. بل يجب أن تكوني مستهلكة فردانية، يجب أن تكوني ترسا يخدم بغباء مصالح اقتصادنا الذي لا يعبأ بك..

هل فهمت اللعبة؟ أرأيت الخبث فيها وكيف صرنا أنا وأنتِ حجارتها التي يحركون ..

الآن، وفي هـذه المحطـة بالضـبط مـن حيـاتي علـى هـذه الأرض، أتحـدث بلسـان أمـة مسـلمة مسـلّمة لخالقهـا، في عهـدتي أربعـة أبنـاء أعلمهـم بنفسـي في بيـتي حيـث أقتسـم الحيـاة مـع زوج قوام محب لأسرته، تحوطني عائلتي الممتدة، ودائرة محدودة من الصحب والمقربين..

أقـول مـن مـوقعي هـذا كأمـةٍ وزوجـةٍ وام: إنـني أشـعر أنـني الآن حققـت أعلـى إمكـاناتي، الآن وجـدت مضـمار السـعي الـذي يليـق بي، الآن أدركـت وظيفـتي، وأنا الآن بـذل مـا آتاني الله مـن وسـع وقـوة لتأديتهـا، هـذه الصـفات والمهمـات منحـت المعـنى لكـل فعـل أو قـول يصـدر عني...

مـاذا عـن شـهادتي الـتي نلتهـا مـن هارفـارد؟ مـاذا عـن "الأشـياء العظيمـة" الـتي تنتظـرني لتحقيقها؟ هل ضاع كل شيء؟

أقـول.. هـل هنـاك أعظـم مـن حمـل أنفـاس مخلـوق آخـر بـداخلكِ؟ هـل هنـاك أعظـم مـن إنجابـه برحمـة الله إلى الـدنيا؟ حيـاة أخـرى قوتهـا منـكِ وفيـك أوكِـل إليـك رعايتهـا وتهـذيبها وتعليمهـا.. مالإمكانات التي تفوق ذلك؟

أي وظيفة تلك أسمى وأكمل من "بناء إنسان"؟

يقولـون أشـياء عظيمـة، أي ثغـر أعظـم مـن تهيئـة وتشـكيل أفـرادٍ في جيـل صـالحٍ مـن المسـلمين سليمي الفطرة يصدعون بالحق ويرفعون راية الاسلام.

لا تـزال حيـاتي مليئـة بالتحـديات والكبـوات، لكنـني لم اعـد اشـعر بالحـيرة والاضـطراب، أنا الآن راضـية عـن نفسـي كمخلوقـة ضـعيفة بـذاتها، لم أعـد أعبـأ بمحاولـة الظهـور بشـكل مصـطنع يخدم الرؤى المجتمعية وما يطلبه السوق الرأسمالي..

بـل أنا الآن أشـعر بالطمأنينـة والامتنـان والراحـة تمـلأ أركـان روحـي، أعلـم أنـني بالمقـاييس النسـوية فاشـلة ومثيرة للشـفقة تمامـاً.. أم ماكثـة في البيـت تقـوم بأشـغاله الرتيبـة، غارقـة في عمـل

مهين لا مال عليه، رعاية أطفال مملين، وفوق ذلك أنتظر ببؤس النفقة من زوجي.. أدوار مهينة لا قيمة لها حسب المزاعم النسوية..

اعلم ذلك أكثر من كل شيء، لكن ثم ماذا؟ هل أقضي العمر سعياً لرضاهم عني؟

لقد أصبحت أعرف هويتي، أدرك دوري ولله الحمد، لقد نضج تفكيري واستقر بعد أن أجاب القرآن عن كل تساؤلاتي وانتشلتني آياته من التيه والحيرة القاهرة، أنا اليوم مسلمة وأمة خاضعة لأمر ربها، توقفت عن شحن أحكام الإسلام بالأفكار الدخيلة الوافدة حين لا تناسب تطلعاتي وطموحاتي المستوردة، توقفت عن ذلك واتخذت من التسليم والتوكل على الله وحسن الظن به سبحانه عدتي وزاد مسيري ما بقيت أنفاسي..

اعترافات نسوية سابقة (الجزء العاشر): أنثى أنثوية، لا نسوية

في الختام، وبعدما سردت لكم قصة تخبطي في سراديب النسوية وعبوري من ظلامها إلى فهم الأنوثة الحقيقية، إليكم بعض ما منّ الله علي به من دروس وعبر في هذه الرحلة..

1.الأنوثة :

لم أعد اشعر بالارتياب أو الحرج تجاه مفهوم الأنوثة، بل على العكس، لقد تبين لي أنه يكاد يكون التعبير الأفضل والصورة الأتم لأي أنثى سليمة الفطرة، فكما أن الرجولة هي الوضع الطبيعي الصحي للرجال، فالأنوثة كذلك هي الإطار الذي من خلاله تؤدي المرأة وظيفتها دون أن تستهلك نفسها في محاولة إعادة تعريف وتشكيل ذاتها نحو الرجولة في سبيل معايير زائفة.

2. الحياء:

بخلاف ما تروج له النسويات العلمانيات وتهمس به في آذاننا، فإن الحياء ليس مظهراً للضعف، تماماً كما أن الوقاحة ليست من علامات القوة !

المرأة الحيية ليست إنسانة رجعية من عصر آخر ولا هي متخلفة مقهورة مسلوبة الحقوق مسحوقة الكرامة، إنما هي الأنثى الحية التي تحمل انعكاس الحياة الكاملة والنقية، يقول ابن القيم رحمه الله "الحياء مشتق من الحياة والغيث يسمى حياً لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياة الحياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة"..

إنهما إذاً مفهومان لا فكاك لأحدهما عن الآخر.

لقد تعلمت كيف تكون المسلمة حرة وأنثوية في آنٍ معاً، لم أعد مضطرة لتورية هذا الجانب مني كي أُفهم العالم أن قوتي تعدل قوة الرجال حين أسترجل تقليداً لهم..

لم أعد مضطرة للاختيار بين الأنوثة المتبرجة السافرة، وبين الحياء والستر الخاليين من الأنوثة..

يمكن للمسلمة العفيفة الحية أن تكون أنثوية، بل إن الحياء من أهم ركائز أنوثتها الكاملة، لا من حيث أثره على اللباس والشكل، إنما في انعكاسه الفكري والخُلُقي، في كل نظرة وكلمة وحركة تصدر عن الأنثى المسلمة، إنه هو فلسفة حياة وتعبير عن العالم الجواني للأنثى ونظرتها المتعالية للوجود..

الحياء يكاد يكون السمة الاكثر تعريفاً لرسالة الاسلام ككل.

3.الاستقلال :

أزعم أنني نجحت في التخلص من خرافات الاستقلال والتمكين، لم أعد أريد السير عكس ما تمليه عليّ جبلتي وحاجاتي لأثبت للآخرين أنني حرة أو مستغنية بذاتي عنهم، لم أعد أريد التظاهر بأنني قادرة على تدبير كل شؤون حياتي بدون أي أحد، لم أعد أصرخ بأن الرجل مخلوق لا داعي له في حياتي!

لم تعد قيمتي وحريتي ونظرتي لنفسي مرتبطة بالحرص على نيل منصب مهم أو وظيفة مرموقة تدرّ علي دخلاً عالياً يطمئنني ويكون البديل لي إذا ما دارت رحى الأيام وانفرط عقد زواجي..

4.الاعتماد على الزوج :

إنني مطمئنة مع إنفاق زوجي الكامل عليّ وعمله وحده خارج البيت لأجل أسرتنا، فبعد أن علمت دوري وثغري الحقيقي، لم أعد أرى في تلبيته لحاجياتي المالية نقصاً من قيمتي أو

حطاً من قدري، أنا هنا في ميدان عملي الخاص، فلمَ أنافس غيري في ميدانه؟ ما الفائدة من مزاحمته؟

راحةٌ كبيرة في إنهاء كل المحاولات المضنية للتظاهر بأنني أستطيع فقعل كل شيء وتحقيق كل شيء، أنا لست بحاجة لذاك التعب وطحن الذات حقيقةً... .

وجود زوجي بجانبي وتوليه لأمري وقيادته لأسرتنا الصغيرة بات مما يشعرني بالأمان، أنا مطمئنة لأن بإمكاني أن أتعب وأقول أني تعبت، بإمكاني أن أضعف وأجد من أتكئ عليه، إنني ممتنة لوجود قوامته، قوته وصلابته التي تتيح لي القيام والتفرغ لوظيفتي التي ذرأني الله لأجلها، زوجي بعد الله هو ملاذ راحتي، سندي وحبيبي، ليس موجوداً ليكون نداً وعدواً لي، ليس المعيار الذي عليّ بلوغه لأحترم نفسياً .. بل هو رفيق دربي في رحلتي بذاتي وأسرتي بنفسي وأسرتي إلى رضا الله، كما أنا رفيقة دربه هو..

5.حرب الجنسين والزواج :

الحياة لم تكن يوماً حلبة مغلقة للصراع بين الجنسين، الرجال والنساء، الزوج والزوجة.. لسنا في حرب لبقاء أحدنا دون الآخر، لسنا في منافسة!

الزوجة والزوج هما فريق واحد، كالشمس والقمر والليل والنهار، يكمل أحدهما الآخر ويعملان معاً حتى بلوغ الهدف المشترك، كلٌ منهما يشد أزر الآخر للقيام بإنجازٍ حقيقي وجميل، هدف يستحق التعب، الجهد، الكد، والعمل الجماعي الموجه، إنه بناء أسرة مسلمة تكون لبنة صلبة في هذه الأمة.

أنّى لهذا المشروع الممتد الجليل بالنجاح ونحن محرضان ضد بعضنا؟ كيف إن كنا نتنافس ونتشاجر دون توقف؟ ما الحاجة للصدام إن كنا مضطرين إلى السير معاً؟ وما الحاجة لكل التعب ونحن ههنا نستطيع الانسجام والتعاون بكل طبيعية وبساطة؟

أنتِ كأنثى وزوجة تحتاجين فعلاً لزوجك وهو كذلك يحتاجك، وكل محاولة لإعادة كتابة دورك والوقوف في وجه طبيعتك وحاجاتك لن تؤدي إلا لمزيد من التوتر ووجع القلب الفارغ، والثمرة لن تكون إلا تعاسة كل الأطراف..

6.بين المهنة والأمومة:

لكم بتنا بحاجة إلى إزالة هذا التوتر الحاد الذي تمت صناعته وزراعته في قلوب نساء العصر الحديث، هذا التوتر المؤلم بين الخيارين الحصريين: المكوث في البيت كأم وسط أسرتها من جهة، والخروج للعمل بحثاً عن الإنجازات "العظيمة" من جهة أخرى..

الأمومة ليست سجناً، بيتك ليس زنزانة تعيشين داخلها في ظلمة قاتمة مقيّدة اليدين، من قال ذلك؟!

وأنت أم يمكنك متابعة وتنمية هواياتكِ، يمكنك تذكية مواهبك ومهاراتك، تعلّم اشياء جديدة، واستكشاف إبداعاتك.. يمكنك فعل كل ذلك كأم، الأمومة ليست مهمة خانقة مستنزفة كما يتم رسمها لكِ..

لكنها في الآن ذاته "كافية"، "التوقف عندها" والاكتفاء بها أمور عظيمة، لأنها مهمة سامية لا تستطيعها غيركِ، أن تكوني أماً لا يعني أنك تفتقرين للطموح والقدرات والمهارات، فهذا الوصف وحده يعني أنك تفعلين الكثير، وتسدين ثغراً عظيماً يمكنك الإبداع فيه ومعه بالتأكيد..

عالمنا الإسلامي يحتاج إلى المزيد من الأمهات اللواتي هن "فقط أمهات"، الراضيات المتفانيات والقائمات على هذه الأدوار "العادية" وهن يعلمن أنها من أكبر إنجازات البشر، تخيلي الأثر والتغيير الذي سيحصل في المجتمع بوجود مزيد من هؤلاء الأمهات اللواتي يستشعرن عظم عملهن..

إنني كأم في بيتها أشعر أنني هنا في المكان الصحيح لي، هنا أؤدي العمل الذي لديّ المقومات والمؤهلات التي تجعلني المرشحة الوحيدة المناسبة له..

من هنا أدعم زوجي، أدير بيتي، أربي وأرعى وأعلّم وأحاول أن أنشئ رجالاً على القيم الإسلامية القويمة، وتلك كلها مسؤوليات عظيمة، لا أرى عليّ أي شيء أهم منها..

فهل سيكون من الحكمة نبذ هذا الثغر وراء ظهري وتركه لغيري من أجل مسؤوليات أقل شأناً منه؟ هل يعقل أن أضحي به لئلا تضيع شهادة هارفارد وسنينها "سدىً"؟

7. القوة في الأنوثة :

الأنوثة لا ترادف الضعف، الهشاشة، العجز ، ولا الغباء..

بل إنها في الحقيقة لا تنفصل عن القوة..

لكن طبيعة القوة في الأنوثة لا تشبه تلك التي في الرجولة، وعدم فهمي لهذه الجزئية البسيطة هو ما جعلني أنفث سنين عمري جرياً وراء نسخةٍ مشوهةٍ أتخيلها للقوة، نسخةٍ مهترئة البنية عن قوة الذكور كما افترضتها وصورتها في داخلي.

لذا عملت جاهدة على قطع اي صلة تبعدني عن بلوغ هدفي، حاولت بكل طريقج أن أبدو قوية البنية، حتى تجنبت التعبير عن مشاعري أو ارتداء ألوان وردية زاهية، آثرت عدم الجهر باحتياجاتي.. فهذه الأشياء هي المحددات الوحيدة لعالم القوة كما فهمته.

أما الآن وبعد عقود مضت، فقد بتُّ على وعي بوجود معانٍ أخرى عظيمة للقوة تفيض على جنبات الأنوثة وتزينها، هناك حيث الكلمات الأساسية هي: الحب، الود، الرعاية، الصبر، الحلم، القدرة على التحمل، العطف، ونعم القوة البدنية أيضاً !

تأملي القوة البدنية والعقلية والعاطفية التي تلزم المرأة لتحمل أوجاع المخاض والولادة..تلك قوة لا يطالها الرجال مهما بلغوا من الشدة البدنية، ولطالما كانت كلها جزءاً من تركيبة الأنثى بشكل طبيعي، هبة وعطية من الله.

لكن مرة أخرى.. فالأمر ليس منافسة بيننا أصلاً..

8.هل الإسلام ضد النساء؟

كإجابة سريعة: لا..

الإسلام ليس ضد النساء كما أنه ليس ضد الرجال، وذاك محض اتهام لا أساس له من الصحة وجهته النسوية للإسلام وحاكمته بناءً عليه..

الله سبحانه وتعالى هو الحق العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة عباده، ذكوراً كانوا أم إناثا، وهو جلَّ وعلا الذي حرم الظلم على نفسه..

لكن هذا الاختلاف بين الجنسين هو من أهم مقاصد التسخير بين الخلائق، وبالذات بين الذكر والأنثى، فكلاً منهما يحتاج إلى الآخر كما خلقه الله بقوة من هذا ورقّة من ذاك، صلابة من هذا وسكينة من ذاك..

ليس منا من هو كامل الأوصاف، ليس منا من يمكنه الاستغناء عن الآخرين، وبالتالي سيظل القسم الناقص منا دوماً يبحث عن كماله مع الآخر، فالحاجة فينا لبعضنا ليست ضعفاً ولا عجزاً، بل هي ببساطة حكمة الله وإرادته في الخلق، الله الذي صورنا على طبائع وهيئات مختلفة تناسب تماماً وبشكل عجيبٍ الأدوار التي عهد إلينا بها .

ولــذلك فــإن أي محاولــة للتمــرد والــرفض لطبيعتنــا المتفــردة، ستســلمنا حتمــاً لحبائــل الحــزن والتعب.

9.لا خوف ولا قلق.. لكن توكل فقط :

لعل من أبرز ما نجحت النسوية في اللعب به وملء العقول به هو الخوف..

لقـد مـلأت قلـوب النسـاء ببـذور الخـوف وعـدم اليقـين وسـوء الظـن في الرجـال والخـوف مـن المسـتقبل، ثم تولـت للظـل وتـركتهن للتخـبط والتسـاؤلات المضـنية الـتي لا تنتهـي.. كلهـا علـى شاكلة: "ماذا لو؟"

مـاذا لـو تـركني زوجـي؟ مـاذا لـو خـانني؟ مـاذا لـو تبـين أنـه سـيء الخلـق وتفـنن في إهـانتي؟ مـاذا لو مات؟ من سيعينني لحظتها؟ هل سأعيش بعده شريدة بلا طعام أو مأوى؟

اسئلة كلها تنجلي وتنقشع سحبها بالتوكل..

فالتوكل على الله هو الإجابة والترياق لكل علامات الاستفهام تلك.

الحيـاة مليئـة بالمجهـول والمخـاوف والشـكوك، لا ضـمانات فيهـا، ولا مجـال لاتخـاذ أي قـرار بـلا بعـض المخـاطرة ب"مـاذا لـو؟"، وهـذا دأب الـدنيا، إذا صـح منهـا جانـب لم يسـلم آخـر، إنمـا في أساسها دار اختبار لا دار قرار ولا نعيم..

لكـن إحسـان التوكـل علـى خالقنـا الـذي بيـده الملـك والأمـر كلـه، المطلـع والرقيـب الـذي لا يعـزب عنـه مثقـال ذرة في السـماوات والأرض أو أدنى.. هـو مـا يهـون المصـاعب والكـروب مهما اشتدت بتذكر عظم الأجر والتطلع لفجر الآخرة .

فلا تسمحي لتجارة الخوف النسوية أن تزعزع في قلبك طمأنينة الكفاية بالله*.

10.عزتنا بالإسلام :

هويتنا هي الاسلام، إننا مسلمات إماء لله ولسنا نسويات، هذا هو انتماؤنا وبه نفتخر ونعتز..

لسنا بحاجة لطوق نجاة من صنع أيدٍ علمانية ملحدة لينقذنا من تخلفنا ورجعيتنا، لسنا بحاجة للسير نحو الاستنارة الكاذبة في درب غيرنا ..

إننا مسلمون بين أيدينا نظام كامل شامل من صنع الله سبحانه، لدينا الدين الذي فيه تكمن كل العزة والسعادة والكرامة.

تلك الأفكار المظلمة لن تقدم لنا شيئاً جديداً أكثر من رمينا في غيابات الحيرة وظلمة الشكوك والبعد المؤلم عن انوار الوحي وصفاء الفطرة ..

نحن مسلمات، لدينا الإسلام وكفى.

وختاماً..

الآن وبعيد أن ابتعدت بنفسي عن تأثيرات النسوية وسهامها، اطمأن قلبي وارتاحت نفسي..

أنا لم أعد مدفوعة لرفض حقيقتي ولا صراع ذاتي أو غيري، كل ما عليّ فعله هو السعي لأن أكون أنا.. أنا كما خلقني الله وصورني؛ أنثى، أمة له، زوجة، أماً ومربية، كلها اشياء تعكس فطرتي، وقيمتي التي لا تُقاس بالمعايير الدنيوية وأبعادها المادية، لأن الموعد الحقّ بات هناك: على أعتاب الآخرة..

والحمد لله ..


بيت المقدس